قراءة نقديّة في كتاب:

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

للاستاذ محمود محمد شاكر

بقلم : الدكتور سعد مصلوح*

« رسالة في الطريق الى ثقافتنا » هو آخر كتاب أصدره العلامة الكبير الاستاذ محمود شاكر ، وقد أودعه خلاصة رأيه في عديد من القضايا الاساسية المتصلة بمسيرة ثقافتنا العربية الحديثة ، « الاخطار التي أحدقت بها وحرفتها عن الطريق الذي كان ينبغي أن تسير فيه لتواصل نموها الخاص والأصيل »

في المقال التالي يناقش الدكتور سعد مصلوح هذا الكتاب المهم ، ولعل أهمية هذه المناقشة أنها تصدر عن واحد ممن يعرفون للاستاذ الكبير محمود شاكر قدره ، ويعتبر نفسه واحدا ممن خرجوا من عباءته ، لكنه مع ذلك يختلف مع استاذه اختلافا نرجو أن يكون في ابرازه خدمة للقارىء وللثقافة وللحقيقة التي نتطلع اليها جميعا .

إن تعجب فعجب أن يحول الحول أو يزيد ، على هذه الرسالة الجليلة الخطر ـ منذ ظهورها لاول مرة ـ دون أن تلقى ما هي حقيقة به من العناية الواجبة على كل مهتم بأمر الثقافة العربية ، مع توافر الدواعي الموجبة للحوار حولها ، ذلك أنها رسالة تستمد أهميتها وخطرها من جهات عدة ، من مؤلفها ، ومن موضوعها ، ومن غايتها .

فأما مؤلفها فحسبك أن تسميه ولا تزيد ، وأما موضوعها فهو ثقافة الأمة التي اليها نتتسب ، وتاريخها العقلي الضارب بأعراقه في أطباق الزمن ، وأما مادتها فقد جلت عن أن تكون صحفا مجردة ، وأوراقا مرقومة ، يجمعها جامعها كيفما اتفق ، ويصنفها نحوا من التصنيف ، ويقول فيه بما تؤديه إليه النظرة العجلى أو المتأنية . كلا ، فالرسالة هي فوق ـ ذلك رحلة عمر ، وتجربة حياة ، وهذا نوع من التأليف نادر جدا ، وخطير جدا . وأما عن غايتها فقد أرادها مؤلفها بيانا من ناصح أمين لما يراه من فساد وبيل ، أخذ علينا حياتنا الادبية من أقطارها ، واستظهارا للعلل الخبيثة المنتجة لهذا الفساد في محاولة دءوب لاستنقاذ امة يراها هو وقد جرى تفريغها الثقافي على يد المستشرقين والمستعمرين من أبناء الثقافة الغربية الحاقدة على الاسلام وأهله ، وعلى يد المقهورين الحاطبين في حبالهم من ابناء هذه الامة على تعاقب الاجيال .

* استاذ بكلية دار العلوم (سابقا) ـ استاد مشارك بكلية التربية الأساسية بالكويت (حاليا) .

ويستبين مما سلف موقفه الرافض للثقافة الاوروبية رفضا قاطعا حاسما ، يعالن به صاحبه الناس في غير جمجمة ولا التواء في هذه الرسالة ، بل في مواطن أخرى كثيرة مما كتب ، بل في كل ما كتب .

ملامح أساسية :

٢ـ لكي نكون على ذكر من فحوى الرسالة ، رأيت أن أبدأ بعرض لابرز المعالم التي تشكل قسماتها باختصار . وهذا العرض الموجز أمر واجب إذ به تتحقق غايتان ، أولاهما تيسير الرسالة لمن لم يقرأها ، وتعريفه بما لها من جلال وخطر ، واخراهما أن يكون مدخلا لطرح طائفة من الملاحظات احببت أن يطلع الناس عليها ، عسى أن أسهم بقولي هذا في اختراق الصمت الذي أراه مطبقا عليها ، كما أطبق من قبل أربعين سنة على منهج الشيخ الجليل في كتابه عن المتنبي . وقد التمست معالم الرسالة فوجدتها بحسب ما هداني اليه اجتهادي هي : (١) حد الثقافة (٢) مراحل الصراع بين المسيحية الأوروبية والاسلام (٣) تقويم الاستشراق (٤) النهضة الاسلامية (٥) تقويم الحملة الفرنسية وحكم محمد علي في مصر (٦) فساد الحياة الادبية ومظاهره .

مقومات الثقافة

لقد ساق صاحب الرسالة تعريفا للثقافة تغيا فيه تحقيق الامور الآتية : (١) اثبات السلطان المطلق للدين على ثقافة أهله . (٢) اثبات أن الدين هو المحرك الفاعل في الصراع بين الامم والثقافة المتباينة ، بل هو الفاعل في حركة التاريخ البشري كله (٣) اثبات التداخل غير القابل للفصل بين الدين واللغة في كل ثقافة (٤) تزييف القول بوجود « ثقافة عالمية » يشترك فيها جميع البشر ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم (٥) وجوب التمييز بين « الثقافة » و « العلم » أي « العلوم البحتة » ، إذ الاولى متعددة بتعدد الملل والنحل والثاني ميراث مشاع بين خلق الله جميعا .

وإعمالا للمفهوم السالف بيانه في رصد مراحل الصراع بين المسيحية الأوروبية ودار الاسلام يتتبع المؤلف حلقات الصراع منذ المرحلة التي بدأت بهزيمة المسيحية في أرض الشام ، إثر الفتوح الاسلامية الأولى ، الى المرحلة التي أعقبت سقوط القسطنطينية في يد المسلمين . وتميزت بالتخطيط الدقيق لغزو دار الاسلام ، واستبدال سلاح العقل والعلم ثم المكر والدهاء بالمواجهة العسكرية المباشرة في ميادين القتال . وقد انتجت هذه المرحلة الأخيرة حاجة ملحة الى معرفة اللسان العربي وحيازة علوم المسلمين وبذلك ظهر في ميدان الصراع ثلاثة اصناف من الرجال هم : المستشرقون والمستعمرون والمبشرون وهذه ثلاثة عند المؤلف « اخوة أعيان لاب واحدوأم واحدة » لا ينبغي لاحد أن يفرق بينهم . بهذا يضع المؤلف نشأة الاستشراق في سياقها التاريخي من مراحل الصراع . ويمهد الطريق للابانة عن تقويمه للاستشراق منذ نشأته الأولى الى أن تحققت له ـ في رأيه ـ سيطرة فاعلة على التعليم والثقافة في بلاد الاسلام .



ويصل المؤلف الى أن عوامل النشأة والثقافة واللغة والدين والاهواء كلها أسوار مضروبة بين المستشرق والفهم النزيه للثقافة العربية الاسلامية ، ومن ثم ينفي عن جميع ما كتبه المستشرقون صفة « العلمية » كما ينفي عنهم صفة الاهلية . ويقرر أن المخاطب بكتبهم ودراساتهم هو المثقف الأوروبي لاغير ، وأن غايتهم هي الحيلولة بينه وبين فهم الاسلام على وجهه الصحيح . ويرى أن المستشرق بذلك غير مذموم فعله لانه خدم به دينه وثقافته وأهله أما الحقيق بالمذمة فهم توابعه من المنتسبين الى العروبة والاسلام .

بداية أم نهاية

والمؤلف ينفي نفيا قاطعا أن تكون الحملة الفرنسية على مصر هي بداية التاريخ للنهضة الحديثة ، على ما هو شائع لدى جمهرة الباحثين ، بل هي البداية الحقيقية لنكبة مصر ودار الاسلام ، ويأبى ثانيا أن يخلع على محمد على « صفة المؤسس لمصر الحديثة » ولا يرى في « رفاعة الطهطاوي » زعيما من زعماء التنوير والتحديث . وهو يرى أن النهضة ولدت اسلامية عربية خالصة حين بدأ احساس بالخطر المحدق يداخل عددا من اعلام الثقافة ، فانبعثوا يحاولون اصلاح الخلل فى « اللغة » وفي علوم الدين و « العقيدة » و « علوم الحضارة » ويجعل على رأسها خمسة من الرجال « عبد القادر البغدادي » و « الجبرتي الكبير » و « محمد بن عبد الوهاب » « والمرتضى الزبيدي » و « الشوكاني » . ويرجع بهذه النهضة الى ما بين القرن السابع عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر ، فهي عنده نهضة معاصرة للنهضة الأوروبية وكانت توشك أن تؤتي ثمارها . ومن ثم كانت الغاية من الحملة الفرنسية هي وأد اليقظة في مهدها فكان تدمير القاهرة ، ونهب المخطوطات والقضاء على المماليك[?] أكبر قوة مقاتلة فى دار الاسلام بعد قوة دار الخلافة ، كان ذلك على يد بونابرت . أما « محمد علي » فعلى يده وئدت النهضة الداعية الى صفاء العقيدة في جزيرة العرب ، وشقت دار الخلافة ، وعزل الأزهر وشيوخه عن قيادة الأمة ، وبرزت فكرة البعثات العلمية التي هي - عنده - رجس من عمل شياطين الاستشراق والاستعمار وكان « رفاعة الطهطاوي » منفذ سياستهم ، وحامل وزرها بانشائه « مدرسة الالسن » واحداثه صدعا مبينا في ثقافة الأمة ، بقسمتها الى شطرين متباينين ثم جاء الاستشراق الانجليزي ليرث دور الاستشراق الفرنسي ، ويرسم رمزه « دنلوب » لمصر سياسة تعليمية وضع بها أسس التفريغ الثقافي الكامل لجيل طلاب المدارس من تاريخهم كله . وبذلك انتهى الامر الى ما نحن عليه الآن من فساد وبيل في الحياة الادبية من كل وجه في المنهج الادبي ، والنتاج المسرحي والقصصي . وأصبح السطو فى رأي المؤلف سنة متبعة سن تقاليدها شيوخ كبار ، وشاعت الثرثرة والاستخفاف والقضايا الهزلية كقضايا الموقف من الغرب « والأصالة والمعاصرة » « والثقافة العالمية » فكان كل ذلك مسوغات للقطيعة التي أرادها بينه وبين الثقافة الأوروبية ، ولرفضها رفضا حاسما قاطعا لاجلجة فيه ولا التواء .

أما وقد عرضنا منهج الشيخ الجليل ، وأبنا عن رحلته الناصبة وراء هذا المنهج ، فقد صار لزاما أن نتأمل ونحاور ونناقش ، ولا بأس على المناقش إن شاء الله ، إن هو جاوز الصواب أو جاوزه الصواب وهو أمر وارد على كل حال ، ما دام الحق بغيته ، واخلاص النية في الفهم عن شيوخه هجيراه . ومن زكاة العلم الواجبة على شيوخه الذين أحكمتهم التجربة ، وصهرتهم المحن أن يأخذوا بيد المتفقه في السبل المخوفة فاني رأيت أكثر هذا الناس وكأنه المعنى بقول الشاعر القديم :

صعدة نابتة في حائر
أينما الريح تميِّلها تمل

المنهج وما قبل المنهج

أبان المؤلف في أكثر من موضع في هذه الرسالة وغيرها عن تصوره للمنهج العلمي ، أو ما يؤثر تسميته « ما قبل المنهج » وهو بعبارة المؤلف « ينقسم

الى شطرين :

شطر في تناول المادة ، وشطر في معالجة التطبيق » (٣٤) ويقوم الشطر الاول على جمع المادة على وجه الاستيعاب المتيسر ، ثم التصنيف والتمحيص ثم التحليل الدقيق لتمييز صحيحها من زائفها . أما شطر التطبيق فيقتضي إعادة ترتيب المادة ، واستبعاد كل احتمال للخطأ . ووضع الحقائق في مواضعها الحقة . ويزيد المؤلف هنا أن شطر التطبيق هو الميدان الفسيح للخلاف العلمي ، واصطراع العقول والحجج ونشأة ما يسمى « المناهج » و « المذاهب »

وهنا ترد أمور جديرة في ظني بالتنويه : أولها أن هذا المنهج لاخلاف على صدقه وحجيته ، وهو أكثر شيء صلاحية للبحث التاريخي ، ونقد النصوص ، ولكنه لايستثني مناهج أخرى ، ولا يسد مسدها فلدينا المناهج الوصفية والتجريبية والفلسفية والمقارنة والتنبئية والاحصائية . وكلها ممكن وقوعه في مجال درس الثقافة وعلوم الانسان . كذلك تتجاوز القضية اطار منهج بعينه لمسألة بعينها في علم بعينه الى دائرة أوسع تتصل بتصنيف المناهج ووسائل البحث ، والتماس الأسس المعرفية لاختلافها ، ومشكل العلاقات بين العلوم ، ومشكل العلاقة بين العلوم ومجالات المعرفة مع اختلافها ، وبحث المسائل التي تستوجب تضافر أكثر من علم أو منهج لدراستها ، ويشكل هذا كله كيانا لعلم قائم برأسه هو علم المناهج وثانيها أن الخلاف العلمي في البحث التاريخي ونقد النصوص قد يقع في شطر المادة كما يقع في شطر التطبيق ، إذ أن جمع المادة لايستوي فيه جميع البشر ، بله التصنيف والتمحيص والتحليل .

ويرجع التفاوت إما لاختلاف القدرة وإما لتفاوت الامكان المتاح ، وإما لاختلاف وجهات النظر حول حجية المصادر ودرجة الثقة بها أو اختلاف مراتب الادلة . وقد يكون مرد الخلاف الى تباين الاصول المنهجية أو المذاهب» وهو ما جعله المؤلف واقعا في شطر التطبيق . يلزم هنا الدور والتسلسل . وثالثها : أن هذا المنهج اذا اعمل على وجهه في كثير من القضايا التي أثيرت في الرسالة بأن جمعت المادة على وجه الاستيعاب المتيسر فان عمود الصورة الحادثة يوشك أن يختلف اختلافا كبيرا عن الوجه الذي وردت به فيها . وما أظن المقام متسعا لكلام شديد التحصيل والتفصيل في جميع ما طرح من قضايا بيد أني ساحاول الابانة عن نفسي بقدر ما يسمح المقام .

نظرة أحادية

يبدو لي أن رجع جميع أشكال الصراع بين الامم والثقافات الى عامل واحد يراد له أن يكون سبب الاسباب هو أمر قبوله من أصعب الصعب يستوي في ذلك أن يكون العامل هو الدين أو القومية أو الاقتصاد أو ما شئت من عوامل . هذه النظرة الاحادية في تفسير حركة التاريخ تواجه القائلين بها ، بمصاعب أحسب أن تجاوزها ليس باليسير . ذلك أن فيها تبسيطا شديدا لعالم معقد تتصادم فيه المصالح والعقائد والاهواء والانتماءات . وقد يكون عامل من هذه العوامل أكثر ظهورا للعيان في مرحلة بعينها ، وقد يراد له أن يكون قناعا ساترا لعوامل أخرى أشد منه خطرا وأعلى شأنا ، لكن ذلك ما ينبغي له أن يحجب عنا أن حقيقة الصراع معقدة ، وخيوطه مشتبكة ألفاف . وجمع المادة على وجه الاستيعاب المتيسر ، واعتبار مالم يكن منهاموضع اعتبار عند النظر في القضية ، يقودنا الى هذه النتيجة لامحالة وأحسب أن هذا هو موطن الخلاف الذي يدفعنا الى ايراد عدد من الاسئلة على الرؤية المطروحة في الرسالة .

يرد المؤلف أسباب النهضة الأوروبية الى صراع « الغضب المشتعل بعدفتح القسطنطينية » ويرى أن صراع الغضب المشتعل بلهيب البغضاء والحقد هو وحده الذي صنع لأوروبا كل شيء الى يومنا هذا (٦٨) والذي لاشك فيه أن الدين كان حاضرا في ميدان الصراع ، أما رد النهضة الى الصراع الاسلامي المسيحي وحده فيوجب أن تكون النهضة العلمية قد تمت في كنف الكنيسة وبهدي من تعاليمها، وبتنظيم وتنسيق منها ، أو أن تكون رموزه من ذوي النزعة الدينية العميقة ، أو هو يوجب على أقل تقدير

أن لا تقف الكنيسة موقف المعارضة والتقييد والقمع من كل مكتشف أو مخترع أو ذي فكر حر اذا لم يكن موقفها هو التعزيز والنصر . غير أن حقائق التاريخ تؤكد أن الكنيسة لم تكن في أفضل أحوالها إبان عصر النهضة ، وأن الانقسامات الدينية في معسكر المسيحية كانت آنذاك من أبرز ملامح العصر ظهورا . وكان الصراع مشبوباً بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وبين الارثوذكسية والاترودكسية وبين المتدينين في مجموعهم والاتجاهات العقلانية وأديان الطبيعة التي تثبت وجود الله وتنفي الوحي وغير ذلك من البدع

واندلعت حرب دينية في فرنسا دامت ثلاثين عاما ، (١٥٦٢ـ١٥٩٣) أهلكت الحرث والنسل ، ويزيد الأمر تعقيدا صراع الكنيسة مع العلم حين تورطت السلطة الكهنوتية ـ وعلى رأسها البابا نفسه ـ في تبني آراء تعارض صحيح العلم والثابت بالتجربة ، فكان اضطهاد العلماء ولم يتخلص كوبرنيكوس من قبضة الكنيسة الا بالموت ، وأحرق جوردانو برونو وسجن جاليليو ، وحمل على إنكار ما ثبت لديه من حقائق العلم . وحاصل القول أن المسيحية والكنيسة كانتا في محنة حقيقية مع عصر النهضة . وان علماء النهضة تحيزوا الى جانب النور القادم لهم من أرض الاسلام على حساب المسيحية والكنيسة وعلى غير رغبة منها .

وطردا للنظرة الأحادية في تفسير الصراع ، يرى المؤلف أن « الدين » « واللغة » هما أبلغ العوامل في تشكيل كينونة الانسان منذ النشأة الاولى وانهما متداخلان في كل ثقافة تداخلا غير قابل للفصل ، وشطر القضية الأولى لااعتراض عليه ، أما التداخل غير القابل للفصل بينهما فلا يصدق الا على الثقافة العربية الاسلامية ، ولكنه بالنسبة للمسيحية ليس كذلك بيقين ، فالقوم لاينسبون اعجازا لغويا لكتبهم المقدسة ، ولا يرون مذمة ولا نقيصة في ترجمتها من لغة الى لغة . بل ان هذه الترجمة كانت عند مصلحيهم وسيلة لكسر احتكار رجال الكهنوت فهم أسرار الدين ، ولرفع الوساطة بين الرعية والعقيدة ، فهي عندهم اذن ضرب من العبادة . أما العربية والاسلام فكانت وثاقة العروة بينهما مفاجأة لاهل الاستشراق . ولم تصح لهم ولا لغيرهم محاولة لنقيضها .

الحملة الفرنسية على مصر

وتقويم الحملة الفرنسية على مصر شاهد آخر على أن احادية التفسير للصراع لايمكن أن تقبل على علاتها . ذلك أن هذه الحملة لم تكن واحدة الغزوات في حياة نابليون . لقد دوخ بونابرت أكثر ممالك أوروبا وانساحت جيوشه فيها .

ولم يكن عنف اجتياحه للنمسا وايطاليا بأقل من عنف اجتياحه لمصر . ولم تمنعه مسيحيته من أن يفتك بجيش البابا في « أنكونا » وأن يبتلي البابا بالنفي والسجن ، ويصادر أملاكه كلها ويضمها الى النظام الاداري الفرنسي ، فما الذي يمنعه اذن أن يفعل بالقاهرة وبالازهر وبطلاب العلم فيه ما فعل ؟ وهذا هو فيشر في كتابه « تاريخ أوروبا في العصر الحديث » يقول : « إن نابليون لم يكن رحيما متلطفا في معاملة أبناء وطنه الايطاليين ، فقد نهب متاحفهم وأروقة قصورهم وانتزع من جيوبهم آخر فلس بضرائبه الباهظة ومطالبه العسكرية ، وقمع بقسوة بالغة أقل مقاومة لسلطانه » يضاف الى هذا أن الثورة الفرنسية التي انجبته لم تكن على وفاق مع الكنيسة ، بل عادتها ، وصادرت أملاكها ، وجعلت انتخاب رجال الكهنوت من الامور المدنية ، وحظرت على رعيتها الاعتراف بأي سلطان كنسي خارج فرنسا ، وتدلنا حوادث التاريخ على أن حكومة الادارة الفرنسية كانت قد دعت نابليون الى غزو انجلترا نفسها ،لكنه عدل عن ذلك الى غزو مصر حين اتجه وهو بايطاليا بأنظاره الى الشرق كما فعل الاسكندر الاكبر . وكانت مصر والمصريون وبلاد وشعوب أخرى كثيرة ثقال الرحى ولهوتها لصراع يدور بين قطبي المد الاستعماري آنذاك . ويستبين من ذلك أن نابليون لم يكن رسول الكنيسة والصليبيين الى مصر بالاصالة ولكنه الصراع الدنيوي الجشع وأحلام التسلط والغزو ، وغطرسة المستعمروغروره .

وقل مثل ذلك في حروب « محمد على » وقمعه للصحوة الاسلامية في جزيرة العرب ، إذ يذكر الاستاذ الجليل مماطلته تركيا حين دعته لقمعها واستجابته لسلطان القناصل ، ولكنه يمر مرور الكرام بحروبه في المورة وقمعه لحركة التمرد المسيحي في البلقان ضد دار الخلافة . ترى هل صادفت هذه الحرب هوى من الكنيسة والمستشرقين والقناصل ؟ . ولماذا تقع الملامة في حروب الجزيرة على أم رأس محمد على ، ولا تنال دار الخلافة حامية الاسلام والمسلمين ؟ . إن مفتاح القضية كلها هو الاطماع السياسية . ورغبة محمد على بوراثة حلم نابليون الغابر ، فلقد كان الرجل صادقا مع أطماعه ، بل إنه لم يتورع في سبيلها عن محاربة دار الخلافة نفسها حين اجتاحت جيوش ابنه ابراهيم الشام وآسيا الصغرى .

أما الصراع بين نابليون - ومن بعده محمد علي - وبين المماليك فلنقرر مطمئنين أن أي مذمة تشيل بها كفة الرجلين ليست بالضرورة محمدة يثقل بها ميزان المماليك ، وأن الحملة الفرنسية وحكم محمد على بالنسبة لمصر لم يكن شرا محضا . وما شأنها في ذلك الا كشأن الحروب الصليبية بالنسبة لأوروبا على نحو ما يقرره الشيخ الجليل (٦١، ٦٢) فالصدام كان أمرا لا مفر منه . ولم تكن لدار الاسلام حيلة في دفعه . وكأن « التحديث » « والابتعاث » « وانشاء مدرسة » الالسن وسائل في المواجهة لم يكن ثمة غنى عنها . وهي وسائل إلا تكن خيرا محضا فليس من الانصاف أن نعدها شرا محضا أصاب « الثقافة المتكاملة » في مقتل . اذ ما الثقافة المتكاملة ؟ وما هي خصائصها عند المؤلف ؟

الثقافة المتكاملة

إن مفهوم « الثقافة المتكاملة » هو عندي معضلة من معضلات الرسالة إذ يتردد وصفا ملازما للثقافة العربية في أطوارها المختلفة الى أن انتهت الى ما يسميه المؤلف « عصر النهضة الاسلامية » . والذي نعلمه علما ليس بالظن أن هذه الثقافة المتكاملة ، وان تكن عربية النشأة على أرجح الاقوال لم تكن خالصة العروبة فيما تلا ذلك من أطوار . بل إنها نتيجة مباشرة لحوار علمي حضاري بينها وبين ثقافات الأمم السالفة . وهكذا يلقننا أسلافنا درسا ما أحوجنا الى استيعابه في هذا الزمان ، فهم لم يضعوا أصابعهم في آذانهم ، بل أفادوا من غيرهم لثقافتهم ما طوروا به أعرق العلوم العربية والاسلامية كالنحو والنقد والبلاغة وأصول الفقه وعلم الكلام ، بله الفلسفة والطب والرياضيات والبصريات وغيرها من العلوم الحادثة . وكان لهم من دينهم وثقافتهم ضابط يحدد للعقل المسلم المتطلع للمعرفة ما يأخذ وما يدع ، وحاولوا التوفيق بين العقل والنقل ، وبين الشريعة والحكمة . وهذه هي سنة الله في التطور ، فلا نعرف ثقافة تطورت وتجددت من داخلها فحسب دون أن تتلاقح افكارها وعلومها مع الافكار والعلوم الناشئة في ثقافات غيرها .

ونعم صدق المؤلف حين نفى إمكان وجود « ثقافة عالمية » يشترك فيها البشر كافة ، ولكنه من الصحيح أيضا أنه لاوجود لثقافة منطوية منعزلة عن سائر ما يعج به العالم من ثقافات . والمؤلف إذ يقرر محقا إمكان التحاور والتناظر والمناقشة بين الثقافات المتباينة (١١٢) وضرورة أن يكون التجديد « حركة ذاتية في داخل ثقافة متكاملة » (٢٣٧) إنما يقرر حقيقة تشفي النفس وتبرىء السقام ولكن هذه النظرة المتسامحة تئول الى نهاية غير متوقعة حين يثبت للمستشرق حقه في أن يكون مستفيدا مناقشا ، وينكر عليه أن يكون دارسا (١١٤) ولا أدري كيف تكون استفادة ومناقشة من غير بحث ودراسة ، واذا كان ذلك لايكون وكان الخطأ واردا على اجتهادات البشر ، فليس ثمة ما يدعو الى الخوف والفزع إلا إذا افتقدنا الثقة بما في أيدينا ، وكان تراثنا في أعيننا هشيما تذروه الرياح . ولماذا نفترض دائما أن اقامة جسور الاتصال بين ثقافتنا وغيرها من الثقافات تهديد لها ؟ ولماذا يتلعب بها الغرباء الحاقدون على الاسلام ؟ هل لي أن أطمئن الاستاذ الجليل فأقول : إني لاعرف قوما يخطئهم الحصر قد زادهم الاطلاع على ثقافة الغرب ايمانا مع ايمانهم بقيمة ما لديهم ،

وجلى لهم جوانب العظمة في العقلية العربية المسلمة في أجلى صورها ؟

حوار الثقافات

ولعل من أظهر قسمات الرسالة تضييق المؤلف لمجال العلاقة بين الثقافة العربية وثقافة الغرب المعاصرة حتى حصرها في قضية الاستشراق والمستشرقين . ومن ثم وصل نسبها بقضية الاستعمار والتبشير ، ثم انه استصحب مرارة تجربته الأولى مع قصية الشعر الجاهلي ليصل بها في النهاية الى تعميم لامسوغ له باعتبار قضية « الأصالة والمعاصرة » تشدقا بالاوهام وتغريرا بالعقول . ومجال العلاقة بين الثقافتين عندي وعند كثيرين أرحب وأعقد من أن تحصر بين أسوار الاستشراق . إذ هي تتناول سائر ما انتجه الفكر الغربي من نتاج في ميادين الدراسات النفسية والاجتماعية والانسانية والادبية والعلوم البحتة . ولا أحسب أن الفصل الحاسم الذي أراده المؤلف بين « الثقافة » والعلم يمكن أن يثبت في هذا المجال فالعقلية المبدعة كل مركب . وجسم متناسق التركيب ، معقد العلاقات متعددة الوظائف . وهذا كله هو موضوع الحوار الذكي بين الثقافات المتباينة لذلك كان حصر القضية في مجال الاستشراق وحده تخصيصا بلا مسوغ ، كما أن استصحاب تجربة الشعر الجاهلي تعميم بلا مسوغ . ولقد أرجعت هذه التجربة المريرة صاحبها الى نوع من المجاهدة يشبه المجاهدات الصوفية ، وولدت لديه منهجا شديد الخصوصية والتفرد على نحو يصعب معه تحويله الى منهج عام يحكم خطط التعليم والبحث العلمي في مدارسنا وجامعاتنا . حتى أنني كدت لفرط حيرتي بازائه أن أناشد الاستاذ الجليل ابراء لذمته أمام دينه وأمته ، أن يخرج للناس كتابا يصوغ لهم فيه تصورا محددا قابلا لان يستبدل به ذلك النظام الذي صنع ـ في رأيه ـ على عين المستعمرين والمستشرقين والذي يقول عنه « اننا لانزال نسير عليه مع الأسف الى يومنا هذا » .

إن الذي أراه هو أن اتساع دائرة الابتعاث ووفرة المجيدين للغات الغرب والمطلعين على ثقافته غير كثيرا من مظاهر الفساد التي لحظها المؤلف في بداية تجربته فلا « السطو » أصبح متاحا مهما استخفى به صاحبه وبالغ في تمويهه ، ولا الدعوة الى التبعية وانسلاخ الامة من كينونتها تجد سميعا مطيعا ، ولم يعد لاحد مستشرقا كان أو غير مستشرق ـ قول في مسألة يمكن أن يتلقى بالتسليم والاذعان الخاشع ، ولم تعد ثقافة الغرب هولة يخافها الناس وتنخلع لها القلوب . نعم إنها واقع نعيشه ويفرض نفسه في عالم اليوم ، ولا يحل مشكلنا معها أن ننظر اليها على أنها « سامرية » يقال في شأنها « لامساس » فالرفض أو القبول أو التعديل في أي فرع عن تصوره ولايمكن أن تكون صيغة العلاقات الدولية المعقدة في زماننا هي الصيغة نفسها التي حكمت الدنيا في عصر الحروب الصليبية أو الحملة الفرنسية .

نعم ان قضية المواجهة بين ثقافتنا وثقافة الغرب حق وليست من أوهام الخيال . وثقافتنا مطالبة بتجديد نفسها ، وبمواجهة عاقلة رصينة لمتغيرات كثيرة لم تكن من قبل ، وبدفاع رشيد عن كينونتها وشخصيتها المتميزة ، وبدور فاعل في تشكيل الحضارة الانسانية المعاصرة ، ولكن صلاح آخر هذا الامر لايكون الا كما صلح به أوله . ألا هو الحوار الذكي والانفتاح المنضبط على ثقافات البشر ، من موقع الثقة بالنفس ، والوعي بالخصوصية وتحديد المعيار الضابط لما نأخذ وما ندع ، وبالتمثل الصحيح لاي زاد ثقافي غريب حتى يستحيل في جسد الأمة ذكاء ونماء وعنفوانا . وأحسب أن هذا هو الدرس الذي لقننا اياه أسلافنا العظام ليجعلوه لنا تذكرة ، وتعيه أذن واعية . □

● ثمن الحرية والكرامة فادح ، ولكن الاستكانة للذل والاستعباد أشد فداحة .
(حكيم عربي)